زكي الميلاد *

تطورات الفكر الإسلامي ومساراته المعاصرة (١/٢)

(الصفحات ٣٥- ٥٨)

ملخّص

شهد العالم تطورات هامة أهمها انهيار المنظومة الشيوعية في العالم، وظهور الإسلام على الساحة باعتباره خيارًا حضاريًا، وتصاعد قلق الغرب تجاه مستقبله، واتساع الإسلام داخل الغرب نفسه. كل ذلك فرض على الفكر الإسلامي مواكبة التطورات الجديدة، وحدثت تطورات في المشروع الإسلامي، دفعت الغرب لأن يهتم بدراسة الإسلام من جديد، وأبرز مظاهر التطور في الفكر الإسلامي هو التخلص من حالة الجمود والاتجاه نحو الحركة على أرض الواقع، واهتمامه بالقضايا العالمية المعاصرة، وظهور أدبيات جديدة في خطابها العلمي ومنهجيتها، وبروز توجّه نقدي لمخلفات حالة الركود، والسير الحثيث نحو المعاصرة.

١- منظومات الأفكار العالمية، تحولات ومراجعات

الفكر الإسلامي كمنظومة ثقافية حضارية، يمثل مادة حيوية في الاشتغال الفكري على النطاق العالمي اليوم، حيث يفوق من هذه الناحية، ويتقدم على أهم المنظومات الثقافية والدينية والسياسية في العالم. وفي هذا الوقت بالذات من تاريخ العالم المعاصر، الذي نشهد فيه التحولات الكبرى، والانهيارات الكبرى. وما يهمنا من تلك التحولات،

* - باحث ومفكر من المملكة العربية السعودية رئيس تحرير مجلة «الكلمة».

تلك التي تتصف بالأبعاد الثقافية والحضارية، وإن كان من الصعب عند النظر الدقيق تفكيك الارتباط ما بين التحولات الأخرى، السياسية والاقتصادية والتقنية، عن جوانبها الثقافية والحضارية.

وفي مقدمة هذه التحولات الثقافية، انهيار المنظومة الشيوعية في العالم، التي خرجت من دائرة الحداثة إلى دائرة التراث. المنظومة التي قدمت نفسها إلى العالم وبالذات في أوروبا كبديل حضاري عن الليبرالية الرأسمالية، ودخلت معها في حرب باردة، وظفت لها العديد من مصادر القدرة ووسائل الصراع، من بعد الحرب العالمية الثانية. وشكلت لنفسها مذاهب في مختلف اتجاهات المعرفة الإنسانية والاجتماعية كالأدب والفن والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة والتاريخ عرفت بالمذهب الماركسي في هذه العلوم.

وبعد سبعة عقود من الزمان، وفي فترة قياسية سريعة غير متوقعة عند الأوساط العالمية كافة، يحصل الانهيار الذي أذهل العالم في حجمه وسرعته وتداعياته على باقي المعسكر الشرقي في أوروبا. الانهيار الذي أدخل العالم الشيوعي في حالة من الاضطراب الفكري الحاد والقلق النفسي وجعله على مفترق طرق، الوضع الذي يكون في العادة من أصعب اللحظات، فكريًا ونفسيًا، بين التمسك بالشيوعية وعلى مرمى أنظاره تنهار أمجادها، وبين اللحاق بالغرب الرأسمالي الذي يعتد بأمجاده ويبالغ بها، وبين التوقف والانتظار حتى تهدأ العاصفة وتنقشع.

إلى جانب هذه المفترقات كان هناك اختيار حضاري آخر هو اكتشاف الإسلام. فهذا الاختيار كان حاضرًا، وإن كانت حصته هي الأقل في العالم الشيوعي بالذات. مع ذلك لايمكن التقليل من شأنه أو إلغائه. فمع هذه الإختيار كان «روجيه غارودي» من فرنسا و «إحسان طبري» من إيران. وهما من كبار مفكري الشيوعية في العالم. كما كان اختيار نخبة من مثقفي العالم العربي والإسلامي الذين وجدوا في الإسلام ما يعوضهم عن الشيوعية وبالذات في جوانب العدالة الاجتماعية والنهوض الجماهيري. وبالتأكيد فإن هذا السقوط للشيوعية ترك أثره الواضح على المعالم الحضارية في هذا

العالم المعاصر. وهذا ما يهتم بدراسته بعض النخب من الباحثين والأكاديميين لمعرفة مستقبليات العالم الحضارية.

إلى جانب هذا التحول وقبله بنصف عقد من الزمن، وفي إطار التحولات الثقافية التي شهدها العالم. كان هناك الانبعاث الإسلامي الآخذ في النمو والاتساع على امتداد رقعة العالم الإسلامي من طنجة في الغرب إلى جاكرتا في الشرق. الانبعاث الذي كشف للعالم قدرة الإسلام على الإحياء والنهوض في عصر يعيش أرفع مستويات الحداثة، وهو على أعتاب قرن جديد، وآفاق حضارية جديدة.

الانبعاث الذي أراد «فوكوياما» أن يقلل من أهميته في مقولته الشهيرة «نهاية التاريخ» ويعتبره بأن لاجاذبية له خارج محيطه الإسلامي، ولا تأثير له على المستوى العالمي. بعكس ما ذهب إليه «هانتيغتون» في مقولته «صدام الحضارات» الذي ذهب إلى أن الدين مركزي في العالم الحديث، وربما كان هو القوة المركزية التي تحرك الناس وتحشدهم. وأراد أن يلفت الغرب إلى صعود الإسلام الذي قد يكون كما يحلل الأكثر خطورة في صدام الحضارات مع الغرب مستقبلاً[1]. الرأي الذي يعتبره «إدوارد سعيد» بأن هذه الأفكار تحيي معها روح الحرب الباردة، إلا أن العدو بات الإسلام والعالم الثالث بدل الشيوعية والاتحاد السوفيتي[2].

فبعد زمن طويل من الانحسار والتراجع الحضاري، حتى بات الاعتقاد عند أوساط عالمية كثيرة في الغرب والشرق بأن الإسلام لاعودة له، بعد أن اكتسحت الحداثة والعلمانية العالم برمته، وبعد كل هذا التقدم والتطور الشامل الذي جعل من هذا القرن الأخير فاصلاً حضاريًا عن القرون السابقة عليه، وإن ما بقي من الإسلام ما هو إلا تراث وذاكرة تاريخية وعاطفة عند الناس. في ظل هذه الاعتقادات وغيرها التي ما كانت تقبل الشك في نظر أصحابها، يأتي الانبعاث الإسلامي وبزخم كبير يفاجئ به العالم، وهو في أشدّ مراحله التاريخية حساسية حيث الهزات العنيفة في كل جهات العالم والمخاضات الخطيرة في كل جانب منه، في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد والإعلام والجغرافية والتكنولوجية وحتى الطب إلى غير ذلك، وهي المخاضات التي

تسبق التحولات الحضارية المهمة.

والانبعاث الإسلامي الذي جاء مع هذه الأوضاع إنما ليؤكد حضور الإسلام في هذا العالم مهما كانت مستويات التقدم التي وصل إليها. وإن ليس في قدرة قادر مهما اجتمعت عنده من مصادر القدرة أن يعزل الإسلام أو يغيبه عن حركة التاريخ. والقناعة تتأكد من وقت لآخر في هذا العالم على أن الإسلام من الممكن أن يكون أحد الخيارات الحضارية العالمية البديلة، أو كما عبر عنه «مراد هوفمان» في عنوان كتابه *الإسلام كبديل* [٣]. أو «روجيه غارودي» في كتابه *الإسلام دين المستقبل* [٤] . أو «عزت بيكوفيتش» في كتابه *الإسلام بين الشرق والغرب* [٥]. والمهم في هذه الكتابات أنها تكشف عن ظاهرة آخذة في النمو والإتساع داخل المجتمعات الغربية. الظاهرة التي تستوقف اهتمام الغرب وتثير فيه حالة من الحذر في طريقة التعاطي معها. إذن فبين منظومة تنهار هي الشيوعية، ومنظومة تتصاعد هي الإسلام، فماذا عن الغرب ومنظومته الليبرالية!

إذا أخذنا هذه المنظومة من خلال مقولة «نهاية التاريخ» فهذا يعني أن الغرب في حالة من التفاؤل إلى درجة المبالغة. وإذا أخذنا هذه المنظومة من خلال مقولة «صدام الحضارات» فهذا يعني أن الغرب في حالة من الحذر والقلق من المستقبل.

وهاتان المقولتان من أهم وأبرز المقولات والأفكار التي جاءت من الغرب في تفسير مستقبليات التحولات العالمية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة، واستقطبت إهتمامًا عالميًا، وفتحت حوارات جادة في مختلف قارات العالم.

وقد كشف عن هاتين الحالتين «زبيغنيو برجنسكي» في كتابين من تأليفه، كان في الأول متفائلاً وهو كتاب *الفشل الكبير: ميلاد وموت الشيوعية* الذي صدر في عام ١٩٨٩م، وفي الثاني حذرًا وقلقًا وهو كتاب *الإنفلات: الاضطراب عشية القرن الواحد والعشرين* الذي صدر في عام ١٩٩٣م. ويعبر عن هذا القلق «كيشوري محبوباني» من سنغافورة حيث يقول: في العواصم الغربية الأساسية إحساس عميق بالقلق تجاه المستقبل، فالثقة بأن الغرب سيظل قوة مسيطرة في القرن الحادي والعشرين مثلما حدث

في القرون الأربعة أو الخمسة الماضية، تخلي مكانها لإحساس بنُذُر الشر من أن قوى مثل الإسلام الأصولي المنبعث، ونهوض شرق آسيا، وانهيار روسيا وأوروبا الشرقية، قد تشكل تهديداً حقيقيًا للغرب. ويختم مقالته التي جاءت في معرض نقد «صدام الحضارات» وفي آخر سطر منها: على المرء أن يقف خارج الغرب ليرى كيف أن الغرب يتسبب في انهياره النسبي بيديه[٦].

وبوضوح أكثر نلمس هذا القلق في التقرير الاستراتيجي السنوي للمعهد الفرنسي للعلاقات الدولية وهو تقرير «رمسيس ١٩٩٥م» [٧].

ولايسعنا المجال أن نرصد كل الأفكار والآراء التي تكشف عن حالة القلق التي يعيشها الغرب حول مستقبلياته في العالم، الآراء التي تتكاثر في هذه السنوات الأخيرة. وما نخلص إليه أن أبرز المنظومات العالمية الكبرى تمر بتحولات ومراجعات، فبين منظومة تنهار هي الشيوعية، وبين منظومة في حالة قلق هي الليبرالية، وبين منظومة تعيش الانبعاث وهي الإسلام.

هذا على مستوى الإيديولوجيات أما على مستوى الديانات. فالحقائق تشير إلى أن الإسلام من بين الديانات الأخرى (المسيحية واليهودية والديانات الشرقية) هو الأكثر انتشارًا بين الأمم والشعوب في قارات العالم. وهذا ما يتوجس منه الغرب، وأصحاب الديانات. ومن أبلغ هذا التوجس ما ورد في منشور البابا يوحنا بولس الثاني، الصادر في أواخر ١٩٩٠ والذي يحذر فيه الغرب من أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتحدى انتشار المسيحية، وهناك تزايد في الإقبال على الإسلام وانحسار في المناطق المسيحية في الشرق الأدنى وإفريقيا، وهناك جسور للإسلام تتزايد في جنوب أوروبا[٨].

والظاهرة التي تلفت أنظار الغرب وتُحيّره، هو النمو المتزايد للإسلام في داخل المجتمعات الغربية. الظاهرة التي تخضع لدراسات مكثفة وموسعة لمعرفة أسبابها وجذورها ومكوناتها وتداعياتها. ومصدر الحيرة عند الغرب هو كيف لهؤلاء أن يتخلون عن الحداثة بعد كل هذه المنجزات الحضارية الهائلة في الحضارة الغربية، ويذهبون إلى

الإسلام الذي يفتقد لهذه الحداثة، وليست له من المنجزات الحضارية التي تقارن بما عند الغرب اليوم.

من جهة أخرى فالغرب الذي عمل ولعدة قرون ليحاصر الإسلام في عقر داره، ويكبح جماح انتشاره وامتداده خارج محيطه، وإذا به ينتبه، والإسلام على أبوابه، ويخترق حصونه المنيعة، حصون الحداثة والتقنية والتقدم.

والذي يشهد على هذه الظاهرة الكتاب الذي صدر في النصف الثاني من عقد الثمانينات من هذا القرن في فرنسا وأثار ضجة في وقته داخل المجتمعات الغربية، وهو كتاب من *إيمان إلى آخر* وهو من تأليف الفرنسية «ليزبث روشيه» والمغربية «فاطمة الشرقاوي» حيث أمضيتا ثلاث سنوات ـ كما تقولان ـ من البحث في أوروبا وأمريكا لمعرفة الأسباب التي تدفع الغربيين إلى الإقبال على اعتناق الإسلام. وفي نظرهما أن: الجميع يعتقد بأن الإسلام يقدم الخلاص بعدما أصيبت الحضارة الغربية بتصدعات خطيرة حولت الإنسان إلى مجرد تمثال من الغار. وذكر الكتاب أن [٢٠.٠٠٠] شخص دخلوا الإسلام في فرنسا، وثلاثة ملايين في أمريكا. وتضيفان: أن ما يلفت نظر الباحثين هو أن الإسلام الديانة الوحيدة الأكثر توسعًا في هذا العصر، فيما تتقلص الأديان الأخرى. وإن الأكثرية الساحقة من أولئك الغربيين الذين اعتنقوا الإسلام إنما فعلوا ذاك لقناعات عقائدية، وليس بدافع أي عامل سياسي، فمنهم الفيلسوف والموظف في المصرف ومن ينتمي إلى عائلات متدينة وعريقة إلى غير ذلك. وحول نشأة فكرة هذا الكتاب تقول الكاتبتان: إن الفكرة برزت خلال لقاء مع موظف في الخطوط الفرنسية الذي قال لهما أن بين يديه الآن أربعين جواز سفر تعود لمواطنين فرنسيين اعتنقوا الإسلام أخيرًا، وإن هؤلاء حجزوا أماكن لأداء فريضة الحج. ومنذ تلك اللحظة كما تقول الكاتبتان قررنا أن نقوم ببحثنا هذا في أوروبا وأمريكا. وإن أهم ما توصلنا إليه ـ والكلام لهما ـ أن الدوافع العقائدية لدى كل شخص أو لدى كل فئة كانت مختلفة من شخص لآخر، ومن فئة لأخرى. وهذا يعكس الثراء العقائدي الذي في الإسلام[٩].

نكتفي بهذه الحقائق ونغض النظر عن المتغيرات السياسية لاتساعها ووضوحها

وانشغال العالم بها. وهذه الحقائق هي من أهم البواعث في الانشغال العلمي الواسع بقضايا الإسلام والفكر الإسلامي والعالم الإسلامي. وأما في العالم العربي والإسلامي فكما هو واضح، فقد استحوذ الفكر الإسلامي على اهتمام واشتغال كل التيارات والاتجاهات الفكرية والسياسية. وهذا ما يكتشفه الراصد للاشتغالات الثقافية بسهولة. ولانريد أن نتوسع في بواعث هذا الاشتغال وصوره واتجاهاته، بعد أن أسهبنا في هذا التمهيد.

إن ما نريد دراسته هو تطورات الفكر الإسلامي المعاصر ومساراته الجديدة والمعاصرة.

وما نخلص إليه من هذا التمهيد إننا نرصد اشتغالاً عالميًا واسع النطاق حول الفكر الإسلامي، الذي يفوق من هذه الناحية، كما أوضحنا، المنظومات الثقافية العالمية الأخرى.

اشتغالات الفكر الإسلامي المعاصر

ما هي اشتغالات الفكر الإسلامي المعاصر في هذه المرحلة بخصوصياتها ومكوناتها، الذاتية والموضوعية الإسلامية والعالمية الراهنة والمستقبلية!

خلال الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي وجد الفكر الإسلامي نفسه مدفوعًا بطاقة قوية لإشتغالات فكرية جديدة، فرضتها عليه متغيرات المرحلة التي إتصفت بكثافة حجمها وسرعة حركتها وخطورة نوعيتها، فما كان على الفكر الإسلامي إلا أن يتوجه بأنظاره إلى هذه المرحلة، ويتأمل في تحدياتها وإشكالياتها ومتطلباتها وتساؤلاتها، الإستجابات التي من غيرها لاتضمن لهذا الفكر حضوره ومعاصرته ومواكبته. خصوصًا وأن الأنظار كانت متوجهة إليه من كل الجهات، بعد أن سجل حضورًا واسعًا على مستوى المشروع الإسلامي الذي انتقل إلى إدارة الحكم والمجتمع والدولة لأول مرة في التاريخ الإسلامي الحديث منذ إنطلاقة السيد «جمال الدين الأفغاني» [١٢٥٤-١٣١٥هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧م] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الميلادي إلى النصف الثاني من هذا القرن. فكان موضع تساؤلات ومناظرات ومطارحات من كل الإتجاهات والتيارات من داخل العالم العربي والإسلامي، ومن الغرب، ومن داخل الفكر الإسلامي نفسه، الذي أخذ ينظر إلى ذاته، ويراجع ما عنده من إجابات وتصورات وبدائل وبرامج، فاكتشف أنه أمام مرحلة دقيقة وحساسة لم يعد نفسه لها فكريًا ومعرفيًا، وإنه بحاجة إلى أن يحرك طاقته الاجتهادية والتجديدية ليكون في مستوى المرحلة وتحدياتها وإحتياجاتها الفكرية، ويستجيب لمنطقة الفراغ التي كشفت عنها المستجدات المعاصرة. فكانت محاولات الاجتهاد والتجديد والنقد والمراجعة والتأصيل، بحثًا عن البدائل والتصورات الإسلامية في مختلف المجالات والميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية والتربوية. فالإسلاميون وصلوا إلى إدارة المجتمع والدولة في إيران من غير إعداد مسبق لتصور أولي لدستور إسلامي للبلاد. ووجدوا أنهم أمام مهام فكرية صخمة جدًا بحاجة إلى وقت غير قليل لملاحقتها، فأوضاع البلاد كانت تتطلب إصلاحات جذرية وشاملة، وإن ما كان يحملونه معهم من أفكار ومفاهيم ليس فقط لم تكن كافية بل إن مشكلات الواقع كانت أكبر بكثير من تلك المفاهيم والأفكار التي كانت على مستوى العالم الإسلامي تميل إلى التجريد النظري أكثر من التطبيق العلمي، ومن المثالية إلى الواقعية، ومن العمومية إلى الخصوصية، ومن الإجمال إلى التفصيل، ومن الثوابت إلى المتغيرات، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الإطلاقات إلى النسبيات.

وهذه طبائع كل فكر ينصرف في اشتغالاته بعيدًا عن ملاحقة الواقع في مقام التطبيق. وهكذا هو الحال مع التجارب الإسلامية الأخرى التي وإن لم تصل إلى مرحلة إدارة المجتمع والدولة إلا أنها انتقلت من طور السرية إلى طور العلنية، ومن حاجات الفئة الخاصة إلى حاجات الأمّة العامة، ومن الكسب الذاتي المحدود إلى الكسب الاجتماعي الواسع، ومن التعاطي مع الواقع من وراء الحجاب إلى التعاطي معه فوق ما يحتمل، ومن حركة الذات إلى وجود الآخر المتعدد والمختلف، بين أن يكون هذا الاختلاف سياسيًا أو منهجيًا في إطار المرجعية الفكرية الواحدة، وبين أن يكون المختلف إيديولوجيًا

وفكريًا، وبالتالي عن نوعية هذه العلاقة وتعددها، بين خيار الانغلاق أو خيار الصدام، أو خيار التعايش، أو خيار التلاقي، على التفصيل. فكانت التقديرات أن هذه الحالات الإسلامية سوف تصطدم بالواقع في أول الأمر، نتيجة ما كان يمر به الواقع من متغيرات، لم توازيها تجديدات في منظومة الأفكار عن الجماعات الإسلامية.

ومن واقع هذه الجماعات تطرق لهذه القضية الأستاذ «راشد الغنوشي» في عام ١٩٨٢م في مقالة نشرها تحت عنوان «الفكر الإسلامي بين المثالية والواقعية» حيث يعتقد أن العقلية المثالية التي ينظر الإسلاميون من خلالها إلى واقعهم وهي أحد الأسباب الرئيسية المسؤولة عن عجزهم في استيعاب ذلك الواقع وطاقاته المتحركة وتوليد فكر إسلامي يقدم للمسلم وعيًا صحيحًا بذلك الواقع، وقدرة على تسخير طاقاته لصالح مشروعه الإسلامي الحضاري[١٠] .

هذا عن المتغيرات الذاتية في المشروع الإسلامي المعاصر التي انعكست على حركية الفكر الإسلامي، أما عن المتغيرات الموضوعية فأبرزها أن العالم الإسلامي الذي كان يلفه النسيان والغائب والمغيب عن الساحة العالمية، ويعيش في داخله حالات من الركود والجمود طوال عقود من الزمن تعود لمرحلة ما بعد الاستقلال. والسيادة الوطنية، إذا به مع أواخر عقد السبعينات ينتقل إلى وضع آخر مختلف حيث الانبعاث والنهوض حتى بات يتصدر واجهة الاهتمامات العالمية، ويستقطب الاهتمام بصورة غير مسبوقة. فالأوضاع انتقلت من الركود إلى حركة لاتهدأ، والأحداث تلاحقت بسرعة، والجميع كان يتابع بحذر شديد.

هذه الأوضاع التي لانريد أن نفصل الحديث حولها، بعثت على تأملات وقراءات جديدة للواقع الإسلامي، لتشخيصه وتقويمه، وتحديد أولوياته واحتياجاته، التي أكدت على ضرورة تحريك الفكر الإسلامي نحو الاشتغال بالمتطلبات والحاجات الجديدة، فكانت تدفع نحو مسارات جديدة في حركية الفكر الإسلامي المعاصر.

الغرب وإحياء الاستشراق من جديد

من خارج العالم الإسلامي، كان الغرب دومًا يثير الإشكاليات والمشكلات أمام

الفكر الإسلامي. وفي هذه المرة، وجدنا أن القضية أكبر من ذلك. فالغرب أخذ يستعيد نشاطه الفكري والبحثي من جديد حول العالم الإسلامي والفكر الإسلامي بصورة تلفت النظر وتثير الانتباه، تبعث على البحث في دوافع وخلفيات هذه الظاهرة، التي لانبالغ إذا وصفناها بأنها تدل على إحياء جديد للاستشراق الذي أعلن عن موته المستشرق الفرنسي «جاك بيرك» في عام ١٩٧٥م حين أعلن أن زمن الاستشراق قد انتهى، وإن ما يعقده المستشرقون من مؤتمرات إنما هي مؤتمرات للعلوم الإنسانية.

ومن المعروف أن الاستشراق قد أنجز أضخم واوسع الدراسات التفصيلية والشاملة حول العالم الإسلامي والفكر الإسلامي في جوانب اللغات والفنون والتراث والتاريخ والدين والمجتمع والدولة والعلوم والتيارات والمذاهب... الخ خلال عدة قرون من السنين. فالكراسي الأولى لتدريس اللغات الشرقية في الجامعة الفرنسية ترجع إلى عام ١٢٤٥م، لكن هذا التوسع الكبير قد بدأ منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، فكلمة مستشرق ظهرت لأول مرة بالإنجليزية في ١٧٧٩م، ثم بالفرنسية في ١٧٩٩م، واعتمدتها الأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٨م[١١].

كان من المفترض أن يكون الاستشراق قد أوصل الغرب إلى ما يشبه الاكتفاء، إذا لم يكن أكثر من ذلك، بحاجاته الفكرية والمعرفية عما يريد أن يعرفه عن العالم الإسلامي والفكر الإسلامي. وقد حصل تنافس بين المستشرقين، ومؤسسات وحركات الاستشراق في الدول الأوروبية على اكتشاف المعارف والتنقيب عنها في بلاد الشرق. وما نراه من الغرب اليوم في اهتمامه بالظاهرة الإسلامية مع لحاظ حجم ومساحة ونوعية هذا الاهتمام، فإنه يذكرنا بحركة الاستشراق، بل هو إحياء جديد للاستشراق بدوافع ومنطلقات جديدة.

من جهة أخرى أن المشتغلين بعلوم الاستشراق وجدوا فرصتهم في إقناع الآخرين في الغرب بما يمكن أن يقدموه من أبحاث وتحاليل وقراءات حول قضايا العالم الإسلامي والفكر الإسلامي. بعد أن فقد هذا الحقل أهميته بمرور الوقت حتى كاد يصل إلى درجة الإعلان عن نهايته. فجاءت هذه الأوضاع لتعيد له الاعتبار وتبعث له الحياة من جديد.

وما نسميه أو نشبهه بالاستشراق هو هذه المرة أكثر تركيزًا وتخصصًا من الاستشراق القديم، حيث يعطي أولويته لدراسة مكونات قدرة الانبعاث والنهوض في الإسلام، ومستقبلياته في العالم المعاصر، وظاهرة الحركات الإسلامية وتناميها واتساعها وديناميتها، ونظرة الإسلام إلى المرأة والغرب والدولة والاقتصاد... الخ الحقائق كثيرة التي تكشف لنا عن اشتغالات الغرب الواسعة بالظاهرة الإسلامية بحيث لانستطيع أن نستوعب مساحتها. ونكتفي ببعض منها بما يؤكد صحة ما نقوله.

ومن هذه الحقائق ما كشف عنها الكاتب الصحفي «محمد حسنين هيكل» في محاضرة القاها في كلية الإقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، يوم ٩ ديسمبر ١٩٨٧م حيث قال: في وثيقة من وثائق لجنة الكونغرس المكلفة بتحقيق وقائع فضيحة إيران/ كونترا، أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية قامت سنة ١٩٨٣م بالتمويل الكامل أو الجزئي، الظاهر أو الخفي، لأكثر من مائة وعشرين مؤتمرًا وندوة في موضوع واحد هو الصحوة الإسلامية[١٢].

وأصبح من المعروف أن أكثر المواضيع تطرقًا ودراسة في الندوات والمؤتمرات التي تنظمها معاهد ومراكز دراسات الشرق الأوسط في أمريكا هو موضوع الإسلام والظاهرة الإسلامية. وإذا أخذنا نموذجًا على ذلك المؤتمر المعروف باسم «ميسا» وهو أحد أهم وأبرز المؤتمرات السنوية في أمريكا حول الشرق الأوسط. فمؤتمر ١٩٩٢م الذي عقد في مدينة «بورتلاند» بولاية «أورجن» وهو المؤتمر الذي يحمل رقم ٢٦، بلغت عدد المحاضرات والندوات التي ألقيت حوالي ٩٠ محاضرة وندوة، خلال أربعة أيام كان معظمها يدور حول الإسلام ونموه في الشرق الأوسط وعلاقته بالغرب [١٣].

هذا ناهيك عن الدوريات والإصدارات التي تزايدت بمعدلات كبيرة فوق العادة حول هذا الموضوع. ففي فرنسا فإن من المستجدات التي قفزت إلى المشهد الثقافي/ السياسي، والتي أوجبت على الباحثين والصحافيين والمفكرين والناشرين التعامل معها والانكباب عليها هو الظاهرة الإسلامية. الأمر الذي حدا بعدة دور نشر إلى إصدار سلاسل عن الإسلام والحركات الإسلامية، أو إلى تعزيز سلاسل قديمة مع إعادة طبع

كتب قديمة عن الإسلام والعالم العربي وذلك لتلبية طلبات المتغيرات[١٤].

وفي ألمانيا حازت المستشرقة في الدراسات الإسلامية «آنا ماريا شيميل» على جائزة دور النشر الألمانية لعام ١١٩٩٥م. وجاء في حيثيات قرار منح دور النشر هذه الجائزة لأعمالها القيمة التي قدمت المعارف حول الديانة الإسلامية وساهمت في التقارب الحضاري.

وفي اعتقاد البعض في المانيا أن تكريم إحدى المستشرقات وفي هذه الفترة بالذات يأتي كرد اعتبار لعلم ظل مهملاً لزمن طويل، وخلق شعورًا بالغبطة في أوساط المستشرقين وطلاب الدراسات الشرقية، لأنهم شعروًا لأول مرة بتكريم مجال علمي ظل لفترة طويلة لايجد صداه خارج جدران الجامعة[١٥] . وذات الاهتمام والاشتغال نلاحظه في بريطانية وروسيا وهولندا وإسبانيا وإيطاليا والسويد ودول أوروبية أخرى. ومصادر الاشتغال عديدة منها الصحافة والإعلام والجامعات ومراكز الأبحاث وغيرها من هذه الحقائق على قلتها بالقياس لحجم واقعها، فإنها تؤكد لنا صحة ما وصفناه ووصفه البعض بإحياء ما يشبه الاستشراق بلون جديد، ودوافع جديدة، ومناهج جديدة.

ومن ملامحه الأساسية:

أولاً: دراسة الإسلام والفكر الإسلامي ليس في بلاد الشرق فقط كما هو التقليد. والجديد في المنهج وباهتمام خاص هو دراسة الإسلام في بلاد الغرب.
ثانيًا: دراسة الإسلام والفكر الإسلامي ليس في الماضي، والماضي السحيق كما هو العرف الذي كان سائدًا في حقل الاستشراق بل التركيز على دراسة الإسلام في مستقبلياته ودينامية تطوره وتقدمه.

ثالثًا: التركيز على جوانب معينة وهي مورد الحاجة والملحة والأساسية. وعلى حد تعبير الفقهاء مورد الابتلاء ومحل النزاع. وليس بصورة موسعة وتفصيلية كالذي عهدناه في الاستشراق القديم.

رابعًا: توظيف العلوم الإنسانية والاجتماعية في أرقى مستوياتها النقدية والتحليلية والمنهجية التي وصلت إليها في دراسة الفكر الإسلامي والظاهرة الإسلامية. خامسًا: الاعتماد على أبناء الشرق وبالذات من العالم العربي الذي يدرسون ويعملون في الغرب في المؤسسات والجامعات الأكاديمية والبحثية بتقديم الدراسات والأبحاث حول دولهم وحول الإسلام والعالم الإسلامي. وفي الجامعات الأمريكية والأوروبية هناك تأكيد على الذين يحضّرون الرسائل الجامعية من دول العالم العربي والإسلامي على تخصيص موضوعات هذه الرسائل عن مناطقهم وعن الإسلام والظاهرة الإسلامية. بعكس الاستشراق الكلاسيكي الذي كان يعتمد على التواجد في بلاد الشرق.

والغرب بإمكانه إذا انشغل بأمر أن يشغل العالم معه في هذا الأمر، وهذه طبيعة كل من يتفوق حضاريًا، يساعده على ذلك هيمنته على وسائل الإعلام العالمية، ونفوذه الواسع في العالم. وحينما انشغل هذه المرة بالإسلام فإنه أشغل معه العالم برمته، إذا كان يريد أن يخلق أجواء الخوف من الإسلام على نطاق عالمي واسع، وأن يكرر تجربته مع الشيوعية حين عمل جاهدًا على إخافة العالم منها، وتصويرها العدو الأول للغرب. ومن طبيعة انشغالات الغرب بالإسلام والفكر الإسلامي أن تفرز إشكاليات وتحديات فكرية ومعرفية، نتيجة لطريقة تعامل الغرب في هذا الحقل بالذات من الدراسات، الذي تتعدد طرائقه بين أن يكون متسائلاً أو مشككًا أو منتقدًا، أو رافضًا لآراء ومواقف الفكر الإسلامي خصوصًا في القضايا التي تشغل اهتمام العالم كقضايا المرأة والديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات والحداثة والدولة وغيرها.

هذه الإشكاليات والتحديات الفكرية والمعرفية التي أفرزها التحدي الغربي دفعت بالفكر الإسلامي المعاصر نحو الاهتمام بتلك القضايا التي تشغل اهتمام العالم. والذي عرضنا له يشكل أهم البواعث الذاتية والموضوعية، الإسلامية والعالمية، الراهنة والمستقبلية التي تحفز الفكر الإسلامي المعاصر نحو مشاغل فكرية معاصرة، والبحث عن مسارات جديدة.

٢- تطورات الفكر الإسلامي المعاصر.. المناهج والنظم.

التطورات السياسية قد لا تحتاج في العادة إلى بحث وتدقيق، لشدة وضوحها، وكثرة الاشتغال بها، ولأنها من طبيعتها تفرض الاهتمام والمتابعة. أما التطورات الفكرية فهي في العادة بحاجة إلى تأمل ونظر، ولايتوقف عندها إلا من تربطه بالفكر والثقافة صلة، كسبًا وإنتاجًا وتفكرًاونقدًا.

وبشكل عام فإن التطورات الفكرية في العالم الإسلامي على قلتها إلا أن حركتها بطيئة، وقد لاتظهر للعيان ولاتأخذ قسطها من الاهتمام والاشتغال بوسائط النقد والحوار والنشر. إلا تلك الأفكار التي تخرج عن المشهور، وتصطدم بالأعراف أو المقدسات. وهذا مما يكشف عن أزمة النقد والحوار في فكر المسلمين. ومن هذه الحالات كتاب *الإسلام وأصول الحكم* للشيخ «علي عبد الرزاق» [١٣٠٥-١٣٨٦هـ/ ١٨٨٧-١٩٦٦م] الذي اصطدم بالمقدسات، فأثار في وقته ضجة كبيرة. ومن الحالات المعاصرة كتاب *السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث* للشيخ «محمد الغزالي» الذي وصفه البعض بأنه رد الاعتبار للعقل المسلم، واعتبره بعض أخر بأنه خروج على المشهور، وبين من قال عنه إنه بمثابة حجر في مياه راكدة، ومن قال عنه بأنه دعوة إلى بيريسترويكا إسلامية، وبين من قال عنه بأنه محاولة لبلورة منهج جديد لنظر الإسلاميين إلى قضاياهم الفقهية، ومشكلاتهم الدينية على ضوء الواقع الحضاري الجديد. إلى جانب هذه الآراء هناك من انتقده ورفضه وأعاب عليه بطريقة حادة وجارحة[١٦].

بينما الأفكار التي تقدم نفسها بهدوء وإيجابية وتدعو إلى البناء الحضاري وإيقاظ الفاعلية في العقل المسلم، فإن هذه الأفكار في العادة لاتكتسب حيوية كما ينبغي ولاتحرك ساكنًا. وهذا من آفاق الفكر عندنا في العالم الإسلامي.

والمتغير الذي نلمسه خلال العشر سنوات الماضية أن التطورات الفكرية بدأت تأخذ حركة ونموًا بالقياس عما كانت عليه سابقًا. وحتى هذا ما كان يحصل لولا ما تعرض له

الواقع الإسلامي من هزات عنيفة حركت ما كان يلفه من جمود وسكون حتى على مستوى الأفكار والمفاهيم.

وهذا ما نريد التوقف عنده رصدًاووصفًا وتحليلاً. فالفكر الإسلامي المعاصر يمر بتطورات في المناهج والمفاهيم ويتطلع من هذه التطورات أن يجدد نفسه نحو نهضة حضارية جديدة. ومن هذه التطورات التي نرصدها، والتي بحاجة إلى أن نؤرخ لها، ونحلل مكوناتها:

نهوض الفكر الإسلامي الشيعي

أولاً: لقد أصاب فكر المسلمين الشيعة لسنين طويلة عوارض الجمود والانكفاء والعزلة، لأسباب وظروف ذاتية وموضوعية، أثرت بدرجات كبيرة على تأخر مستويات التطور العام لأوضاعهم الاجتماعية والثقافية، فكانت الفرص أمامهم ضيقة في المشاركة في الوظائف العامة في المجتمع والدولة، صاحبتها مظاهر ضعف الإرادة والاندفاع الذاتي من قبلهم. وانصرف اشتغالهم العلمي والفكري على صعيد العلماء والفقهاء بصورة أساسية في ميادين الفقه والأصول واللغة، وهي العلوم التي تتأسس عليها نظم التعليم في الجامعات الشيعية، التي تعرف بالحوزات العلمية، والتي كان أكبر ضعف فيها افتقادها إلى العلوم الاجتماعية والعلوم المعاصرة. ومن الثابت أن الفكر لايتطور بمعزل عن الواقع، الواقع الحي المتحرك الذي يفرز المنبهات للفكر ويوقظه على حاجات الأمّة ومتغيرات الحياة والزمن.

وليس أمامنا من الوسط الشيعي دراسات تحدثت بوضوح عن هذه الأوضاع الاجتماعية والثقافية، كما جاء في كتاب *الثقافة الرسالية* حيث يقول المؤلف: في كل مكان، من حدود الصين في ارض أفغانستان، حتى جنوب لبنان، ومن البصرة حتى سلطنة عمان، ومرورًا بكل أراضي إيران والعراق. رأيت واقعًا متخلفًا، شرس التخلف، عميق التخلف، يسود أوضاع الشيعة. بالرغم من أن حوادث كثيرة عصفت بهم في طول خمسين عامًا الأخيرة، والبعض منها كان كافيًا لتحريك أضخم أمّة وبعثها تصارع الزمن.

فهم لم يزالوا تلك الأمّة العاجزة، الفقيرة المفككة، المظلومة، المقهورة. علمًا بأن شعوبًا معاصرة مع الشيعة، ومتواجدة معهم، هم أكثر تقدمًا في كل حقول الحياة[١٧].

هذا عن واقع الأمس، أما عن واقع اليوم فهو أحسن حالاً بالقياس النسبي بعد التحول الإسلامي في إيران. الحدث الذي جعل من الفكر الإسلامي الشيعي في العالم الإسلامي ينتفض من ركام الجمود ورواسب الركود، وتدب فيه الحركة والحيوية والفاعلية. فيخرج من العزلة إلى الحضور، ومن الجمود إلى الحركة، ومن التراث إلى المعاصرة. وإذا به يكتشف خطورة منطقة الفراغ في هذا الفكر، ومضاعفات العزلة عن الواقع وعن الآخر الإسلامي، والاكتفاء ببعض العلوم على حساب علوم العصر. فما كان عليه إلا أن ينهض بنفسه ليواجه ضخامة المهام الفكرية التي تنتظره وتحيط به من كل جانب وفي كل اتجاه.

وفي دولة مثل إيران وجد الفكر الإسلامي الشيعي نفسه أمام مجتمع ومؤسسات ودولة تتصف بمساحتها الشاسعة، وعدد سكانها الضخم، وموقعها الحساس، وقومياتها المتعددة، والفساد الذي استشرى فيها لزمن طويل في مختلف مرافق الحياة والدولة. فأي ضخامة فكرية يحتاجها هذا الواقع بالانتقال به نحو الصياغة الإسلامية، وأسلمة الحياة والدولة والمجتمع!! فما كان هناك خيار أمام الفكر الإسلامي الشيعي إلا أن ينهض من داخله ويواجه ما ينتظره من ثقل المسؤوليات الفكرية والثقافية والقانونية. وعن هذا النهوض في الفكر الإسلامي الشيعي وامتداده في العالم الإسلامي يقول الأستاذ «راشد الغنوشي»: كان لانتصار الثورة الإسلامية في إيران أن أطلق موجة عاتية من الفكر الشيعي[١٨] اجتاحت عددًا كبيرًا من مثقفي العالم ومثقفي السنّة. وفي غمرة الحماس لانتصارات الثورة كانت تجد أفكار هؤلاء الرواد ـ كتابات الصدر ومطهري وشريعتي ـ بل حتى التراث الشيعي صدى متعاظمًا، وكانت انتصارات الثورة تقوم مقام كاسحات الثلوج أمام الفكر الشيعي تفتح في وجهه الطريق فيتقدم دون مقاومة

تذكر[١٩].

ولاشك أن نهوض الفكر الإسلامي الشيعي هو لصالح الفكر الإسلامي العام وضرورة له. لأن هذا النهوض سوف يستفيد منه كل العالم الإسلامي. ولازالت تنتظر الفكر الإسلامي الشيعي مهام فكرية كثيرة بحاجة إلى اجتهاد وتجديد ومراجعة وتأصيل.

تجديد الفكر الإسلامي والانتقال به نحو مرحلة جديدة

ثانيًا: الذين يؤرخون لتطورات الفكر الإسلامي في تاريخ العالم الإسلامي والثقافي الحديث والمعاصر، يصنفون مرحلة جديدة يصطلح عليها البعض بالفكر الإسلامي الجديد[٢٠]. ويصنف لهذه المرحلة الدكتور «طه جابر العلواني» التي يؤرخ لها بالمرحلة الرابعة من مراحل تطور فكر المسلمين. فالمرحلة الأولى عنده يصطلح عليها بمرحلة الصدمة الأولى والانبهار المباشر، حيث زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديدًا عن مواقعهم الفكرية والثقافية، وفقدوا ثقتهم بفكرهم الإسلامي. والمرحلة الثانية: التي بدأت فيها النفوس تستقر إلى حد ما وتجتاز فترة الانبهار. والمرحلة الثالثة وهي التي نعيشها أو نعيش جزءاً منها، وهي التي سميت بمرحلة الصحوة الإسلامية، اي مرحلة الوعي بالذات أو اكتشاف الذات. أما المرحلةالرابعة وهي التي نقصدها، فهي مرحلة تقديم البديل الإسلامي الحضاري لكل ما قدمه الغرب[٢١].

ويصنف لهذه المرحلة الأستاذ «منير شفيق» بالمرحلة الخامسة أو ما بعدها. فالمرحلة الأولى عنده وهي التي مثلها فكر «جمال الدين الأفغاني» وتتسم بمحاولة إصلاح الدولة العثمانية من داخلها. والثانية: وهي مرحلة تثبيت أقدام الاستعمار وتمتد مع نهاية الحرب العالمية الأولى. ومثلها فكر «محمد عبده» و «رشيد رضا» و «الكواكبي» و «أرسلان». والثالثة: وهي مرحلة الاستعمار المباشر. والرابعة مرحلة الدولة العربية المستقلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وأما المرحلة الخامسة فيمكن اعتبار نجاح الثورة الإسلامية في إيران وبداية القرن الخامس عشر للهجرة إيذانًا بالدخول إليها، وقد

أخذت تتسم بمحاولة الفكر الإسلامي مراجعة تجربته السابقة، والانتقال إلى مواقع الهجوم والإيجابية في تغيير الواقع [٢٢].

وفي داخل الخطاب الإسلامي المعاصر نلحظ دعوات لاتنقطع وبعناوين كثيرة تتلمس التعبير عن هذه المرحلة الجديدة التي يتطلع إليها الفكر الإسلامي. من هذه العناوين «تجديد الفكر الإسلامي» [٢٣]، «إصلاح الفكر الإسلامي» [٢٤]، «ضرورة تجديد الاجتهاد»[٢٥]، «إحياء الفكر الديني»[٢٦]، «التطوير في الثقافة والفقه»[٢٧]، «تجديد أصول الفقه الإسلامي»[٢٨].

والفكر الإسلامي مع هذه المرحلة يريد أن يخرج من مآزقه ومشاغله التقليدية إلى المشكلات الحضارية الكبرى في العالم الإسلامي، وأن يواكب القضايا العالمية المعاصرة، وأن ينهض بالحياة الإسلامية نحو آفاق التنمية الشاملة.

الإرتقاء بالعمل الفكري الإسلامي

ثالثًا: المراقب للساحة الثقافية الإسلامية خلال العقد الماضي وهذا العقد يلحظ تطورًا في العمل الفكري الإسلامي من جهة الكم والنوع. فمن جهة نلحظ تنامي الإدراك بأهمية العمل الفكري والارتقاء به، بعد أن كان في حالة انحسار وتراجع خلال العقود الماضية مع ما أصاب فكر المسلمين من عوارض الجمود والعزلة. وهذا الإدراك ما كان يحصل لولا التنبه لعمق المشكلات الفكرية التي نعيشها، والانصراف عن العمل الفكري إلا في بعض الأطر الفردية، حيث بات هذا الحقل الحيوي مهملاً، وكأنه لم يكتشف على أهميته وضرورته وآفاقه ومستقبلياته. ومع هذا الإدراك بأهمية العمل الفكري المركز والعميق تشكلت خلال هذه الفترة التي نؤرخ لها في تطورات الفكر الإسلامي المعاصر، العديد من مراكز الدراسات ومعاهد البحث، والمنتديات الثقافية، والمؤسسات والجامعات ذات الصفة الإسلامية، والتي تحمل تطلعات الارتقاء، بالعمل الفكري والنهوض بالبحث العلمي الإسلامي، وتأهيل العالم والمفكر والمثقف الإسلامي، وإيجاد حلقة من التواصل العلمي بين مفكري وباحثي العالم العربي

والاسلامي، وإعداد الدراسات والبحوث الإسلامية ذات المواصفات العلمية، بالإضافة إلى عقد الندوات والمؤتمرات العلمية الإسلامية. وقد أعطت هذه الجهود ثمارًا قيّمة ولازال أمامها الوقت.

من جهة أخرى أخذ يتكثف حضور الدوريات الفكرية والثقافية والإسلامية وهي تحمل معها هموم النهوض بالعمل الفكري والإسلامي، وتطوير خطاب حضاري إسلامي معاصر، وممارسة نقد الواقع الإسلامي مقدمة للنهوض به.

كما ظهرت لنا مجموعة من الأدبيات الفكرية الإسلامية المتميزة، الجديدة في موضوعها، المتطورة في خطابها، العلمية في منهجها، الموضوعية في معالجتها، المتمسكة بأصالتها.

ودخلت على ساحة الفكر الإسلامي شريحة من الأكاديميين الإسلاميين وجيل جديد من المفكرين الإسلاميين الذي جمعوا بين الأصالة والانفتاح على علوم العصر وثقافاته فكانت لهم اسهامات علمية على درجة كبيرة من الأهمية على الصعيد الإسلامي والعالمي.

نقد ومراجعات

رابعًا: ما كان من الممكن أن يحدث نهوضٌ في الفكر الإسلامي، وتجديدٌ في مناهجه، وتطويرٌ في حركته، من غير أن يترافق ذلك مع مراجعات ونقد في فكر المسلمين وخطاباتهم الثقافية لإزالة ما علق عليه من جمود ورواسب بالية، وعوائق منهجية، وسلبية وانغلاق. وبجرأة أكثر فقد دعا السيد «محمد حسين فضل الله» إلى أن نعيش حالة طوارئ لنتخلص من كل هذا السكون والجمود الميت الذي يطبق على كثير من أمور الثقافة الإسلامية[٢٩].

ومن كان يتردد عن ممارسة النقد فيما مضى، تحت عناوين الحرج أو الضرر، أو الاحتياط، أو سد الذريعة، أو غير ذلك، فهو اليوم يمارس النقد بعد أن ارتفعت تلك

العناوين، وأصبح النقد الضرورة التي لايجب السكوت عنها، كالنزاع المسلح الذي حصل بين بعض الجماعات الإسلامية، وظواهر التكفير وإلغاء الآخر الإسلامي، وممارسة العنف في غير مكانه، وسيطرة التقاليد على حساب الدين وتعطيل العقل إلى غير ذلك. وأغلب الخطابات الإسلامية المعاصرة مرت خلال هذه الفترة بمراجعات فكرية في تجديد وتطوير منظومات المفاهيم عندها، بما في ذلك الخطاب الإسلامي السلفي في أحد روافده الذي يقدم نفسه بالمظهر المستنير.

وهذه المراجعات، هناك من يمارسها علنًا وبوضوح، وهناك من يتكتم عليها، ومن العقل والحكمة أن تحصل هذه المراجعات بعد كل هذه التحولات والمتغيرات النوعية التي حصلت في العالم والواقع الإسلامي.

وفي هذا الجانب يمكن أن نرصد مجموعة من الكتابات الإسلامية المعاصرة التي عبرت عن هذا التطور في الفكر الإسلامي، من هذه الكتابات *مسائل* حرجة في فقه *المرأة* [٣٠] للشيخ «محمد مهدي شمس الدين»، *أزمة العقل المسلم*[٣١] للدكتور «عبد الحميد أبو سليمان»، *تراثنا الفكري بين ميزان العقل والشرع*[٣٢] للشيخ «محمد الغزالي»، *الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم*[٣٣] للشيخ «يوسف القرضاوي»، *في النقد الذاتي: ضرورة النقد الذاتي للحركة الإسلامية* [٣٤] للدكتور «خالص جلبي»، *الحركة الإسلامية في ظل التحولات الدولية وأزمة الخليج*[٣٥] إعداد «أحمد يوسف».

هذه عينة من كتابات جاءت في سياق نقد الواقع الإسلامي، ومراجعة بعض المفاهيم والقضايا الفكرية التي بحاجة إلى إعادة نظر وتجديد، وقد اكتسبت هذه الكتابات اهتمامًا لجدية خطابها النقدي وتطلعاتها للتجديد والتطوير.

والساحة بحاجة إلى هذه النوعية من الكتابات الجادة والجريئة في نقد الواقع والأفكار التي تكبح نهوضنا وتقيد انطلاقتنا، وتعطل فاعلية عقولنا، وتوكلنا إلى السلبية والقشرية والانغلاق.

البحث عن المعاصرة

خامسًا: المعاصرة كمنهجية معرفية لايدركها ولايكتسبها من لايعيش الواقع بتفاصيله وتطوراته، ويكون حاضرًا بقدراته في التأثير عليه، بتعدد مصادر القدرة بين أن تكون ثقافية، أو سياسية أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو إعلامية...

والمعاصرة تترك آثارها واضحة على بنية الأفكار وحركيتها ومنهجية تنزيلها على الواقع، وعلى أولويات وتراتب هذه الأفكار، فيما يجب أن يتقدم وفيما يجب أن يتأخر، فيما يجب ان يكون فوريًا وفيما يجب أن يكون تدريجيًا، وفيما يجب أن تتوفر مقدماته وفيما لايحتاج إلى أن تتوفر مقدماته، وفيما يجب أن يكون معيّنًا وفيما يجب أن يكون مخيّرًا.

المعاصرة كمنهجية من الممكن أن نشخصها بالتعرف على منهجية القرآن الحكيم في علاقته بالواقع خلال فترة التنزيل، حتى نزل منجّمًا من بدء الدعوة الإسلامية إلى اكتمال التشريع خلال ثلاثة وعشرين سنة هي زمن نبوة الرسول محمد (ص). من آية ﴿إقرأ﴾ وهي أول من نزل من القرآن إلى آية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا﴾[٣٦] وهي آخر ما نزل من القرآن على اختلاف في الروايات.

فالمنهجية التي اتبعها القرآن الحكيم في تنزيل آياته على الحوادث الواقعة، كشفت عن منهجية علمية محكمة في علاقة التشريع بالحوادث الواقعة. فكان القرآن يستجيب لتطور حاجات الدعوة الإسلامية والمجتمع الإسلامي في تبدل أوضاعه وتغير ظروفه، حتى تبلور ما عرف في علوم القرآن بعلم المكي والمدني، وخصائص كل خطاب وشروطه وحاجاته. ومن المعروف أن القرآن الكريم خلال زمن الدعوة لم يترك منطقة فراغ تشريعية إلا وسدها، ولا ابتلاء إلا ورفعه، ولا واقعة محيرة إلا وشخصها، ولاحاجة إلا واستجاب لها.

وما نراه اليوم أن الفكر الإسلامي أكثر معاصرة من السابق لأنه يجد نفسه اليوم أكثر قربًا من الواقع التي هي علاقة بالزمان والمكان وشروطهما ومقتضياتهما.

وقد وجدنا أن المكان الذي يكون فيه الفكر الإسلامي أكثر قربًا من الواقع، يكون أكثر استيعابًا وتقدمًا نحو المعاصرة. وهذا ما نلمسه في إيران فالفكر الإسلامي هناك وبالذات على مستوى الفكر الإسلامي الشيعي، ليس قريبًا من الواقع فحسب بل هو الذي يوجه حركة الواقع، لذلك فهو يتجه نحو المعاصرة بسرعة وفي مختلف المجالات الفكرية والقانونية والتشريعية، ففي مجال الأصول والتشريع طرح مفهوم الإجتهاد المتحرك مقابل الاجتهاد الجامد، وفي مجال الفقه طرح مفهوم الزمان والمكان في المباني الفقهية، وهكذا في تفسير القرآن وحركة التجديد تتواصل هناك ومن المهم متابعتها. وبصورة عامة فإن الفكر الإسلامي اليوم أكثر معاصرة من أي وقت مضى، والمعاصرة هي صيرورة لا تتوقف ولاتنقطع.

٣- تطورات الفكر الإسلامي ـ الأفكار والمفاهيم.

تلك كانت التطورات العامة التي ترتبط بالبنية المعرفية للفكر الإسلامي ومنهجياته الكلية. أما التطورات التي ترتبط بحركة الأفكار ونوعية الاشتغال الثقافي في الفكر الإسلامي على مستوى المفاهيم خلال الفترة التي نؤرخ لها، فهذا ما يحتاج أيضًا إلى دراسة وتأمل.

والمعيار الذي نقيس عليه تحديد نوعية هذه التطورات هو كثافة وسعة الاشتغال في الموضوع الواحد وبصورة مميزة وبمنهجية جادة، تأخذ بعين الاعتبار تحولات الواقع في عنصري الزمان والمكان، وتحولات الفكر في اتجاه التجديد والتطوير.

وهذه التطورات هي تخصيصات لتلك التطورات العامة، ومتغيرة في بعض مفرداتها، فما هو أولوي في هذه الظروف، قد يفقد أولويته في ظرف آخر، ويحل مكانه اهتمام جديد، وقد تحافظ بعض المفاهيم على حيويتها في أكثر من ظرف لنوعيتها وطبيعة علاقتها بالظرف ومتغيراته.

ومن هذه التطورات التي تشكل مسارات جديدة أو قديمة لكنها متطورة عن السابق في الفكر الإسلامي المعاصر.

الهوامش:

١ ـ أنظر صدام الحضارات. مجموعة من الباحثين، بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٥م، ص ٨٤-٢٥.

٢ ـ من محاضرة ألقاها إدوارد سعيد في بريطانيا،بعنوان «صراع الحضارات أو خلافات في التعريف» أنظر جريدة الحياة (لندن) العدد ١١٦٨٦، ١٧ فبراير ١٩٩٥م.

٣ ـ صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب في بيروت بدون ذكر الناشر، ترجمة: م. محمد مصطفى مازح، ١٩٩٣م، والمؤلف هو سفير ألمانيا في المغرب.

٤ ـ صدر الكتاب عن دار الإيمان في بيروت، ترجمة: عبد المجيد بارودي، ١٩٨٣م.

٥ ـ صدر الكتاب عن دار الشروق بالقاهرة، بالتعاون مع مجلة النور الكويتية، ودار بافاريا الألمانية، ١٩٩٤م.

٦ ـ صدام الحضارات، مصدر سابق، ص ٥٧-٦٢.

٧ ـ انظر جريدة الحياة (لندن) العدد ١١٧٩٨، ١٢ يونيو ١٩٩٥م. قراءة في تقرير فرنسي عن العلاقات الدولية الجديدة، قيس جواد العزاوي.

٨ ـ الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين. د. شوقي أبو خليل، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٥م، ص ١٠. انظر **York Times INTERNATIONAL Tyenew، Wednesday، January 32، 1991**.

٩ ـ أنظر الحركة الإسلامية ومعالم المنهج الحضاري، زكي الميلاد، بيروت: دار البيان العربي، ١١٩٩١م، ص ٢٥.

١٠ ـ محاور إسلامية، راشد الغنوشي، الخرطوم: بيت المعرفة، ١٩٨٩، ص ٢٧.

١١ ـ انظر الاستشراق في أفق انسداده. د. سالم حميش، الرباط: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية، ١٩٩١م، ص ٧.

١٢ ـ المستقبل العربي. (لبنان) العدد ١٠٨، ١٩٨٨/٢م.

١٣ ـ انظر ورقة «مركز دراسات الشرق الأوسط في الغرب وإهتمامها بالمسلمين» أعدها: د. صالح بن حمد الصقري، مقدمة لمؤتمر «المسلمون في الغرب» عقد في لندن عام ١٩٩٣م. راجع جريدة الشرق الأوسط (لندن) العدد ٥٤٤٨، ١٩٩٣/١٠/٢٨م.

١٤ ـ انظر جريدة الحياة (لندن) العدد ١١٧٩٠٣، ٢٤ سبتمبر ١٩٩٥م.

١٥ ـ انظر جريدة الحياة (لندن) العدد ١١٧٩٠، ٣ يونيو ١٩٩٥م.

١٦ ـ حول هذه الآراء والمناقشات انظر «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، المنهج وأزمة النقد الإسلامي» زكي الميلاد، البصائر (لبنان) السنة الرابعة، العدد ٨، صيف ١٩٩٢م.

١٧ ـ الثقافة الرسالية. أحمد ناصر، بيروت: دار التوجيه الإسلامي، بدون تاريخ، ص ٣..

١٨ ـ يقصد الأستاذ الغنوشي: الفكر الإسلامي المدون بيد الشيعة.

١٩ ـ الحريات العامة في الدولة الإسلامية. راشد الغنوشي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيـة، ١٩٩٣م، ص ١٤٢.

٢٠ ـ انظر الفكر الإسلامي المعاصر نظرات في مساره وقضاياه. قيس خزعل العزاوي، بـيروت: دار الـرازي، ١٩٩٢م.

٢١ ـ انظر الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج. د. طه جابر العلواني، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣م.

٢٢ ـ الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات. منير شفيق، بيروت: دار الناشر، ١٩٩١م. ص ٣٠.

٢٣ ـ انظر الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد. زكي الميلاد، بيروت: دار الصفوة، ١٩٩٤م.

٢٤ ـ انظر إصلاح الفكر الإسلامي: ورقة عمل. د. طه جابر العلواني، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١م.

٢٥ ـ انظر مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية. د. يوسف القرضاوي، بيروت:/ مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م.

٢٦ ـ انظر إحياء الفكر الديني. الشيخ مرتضى مطهري، بيروت: دار التعارف، ١٩٨٩م.

٢٧ ـ انظر التشريع الإسلامي مناهجه ومقاصده. السيد محمد تقي المدرسي، طهران: إنتشارات المدرسي، ج٢.

٢٨ ـ انظر تجديد أصول الفقه الإسلامي. د. حسن الترابي، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٠م.

٢٩ ـ السفير (لبنان) السنة الثانية والعشرون، العدد ٧٢٢٤، الإثنين ٣٠ أكتوبر ١٩٩٥م.

٣٠ ـ الكتاب من إصدار المؤسسة الدولية للدراسات، بيروت، ١٩٩٤م.

٣١ ـ صدر الكتاب عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، ١٩٩٢م.

٣٢ ـ صدر الكتاب عن دار الشروق بالقاهرة.

٣٣ ـ صدر الكتاب عن مؤسسة الرسالة في بيروت، ١٩٩٣م.

٣٤ ـ صدر الكتاب عن مؤسسة الرسالة في بيروت، ١٩٨٥م.

٣٥ ـ الكتاب هو مجموع أعمال ندوة أشرف عليها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالتعاون مع المؤسسة المتحدة للدرسات، عقدت بواشنطن في الفترة ما بين ١٩-٢١ يوليو ١٩٩١م. جمع أعمالها أحمد يوسف.

٣٦ ـ سورة المائدة.